٤ قصص فلسطينية

نواف ابو الهيجاء

رحلة المسافر البعيدة

استدراك من الحركة الرابعة

« .. ولقد عثر على جثة الرسام الفلسطيني المذكور في احد منعطفات المدينة . ولم تتقدم اية سفارة عربية حتى الان بطلب للجثة . والتحقيق جار لمعرفة الجاني . »

وتمزقت الصحيفة بين يدين مرتعشتين ، وكان المطر عنيفا في الخارج .

الحركة الاولى

رسالة الى ابتهال .

ـ لكم رايت من هذا العالم اذن ؟

هكذا تساءلت ، وكان الورد يتفتح على راسي خديك .

ـ الانسان يعيش مرة واحدة . فليذهب ، ليطف العالم .. هذا العالم الواسع الذي يعيش فيه . وليحدث ما يحدث . ان النتيجة واحدة ، سواء اعاش الفرد منا في دكان احذية ، في زقاق منسي من ازقة مدينة هرمة جبة كبغداد ، او كان ذا اجنحة توصله ، في كل يوم ، الى عالم جديد . النتيجة واحدة .. الموت . وعلى ثغرك رقصت جذلى بسمة لم يوارها الخجل . كانت الغرفة تغص بالناس ، كل واحد يتكلم ، كل واحد في عالمه . حتى انني اشتبكت في احاديث جانبية مع الاخرين ، لكنني كنت معك . استطيع الان ان اذكر كم من مرة التقيت بعينيك وهما تتجهان الى اغوار عيني . وكم من مرة اصطدت بشباك عيني سمكتين من عينيك .. اللتين تشبهان غابتين افريقيتين ، في صباح ندي .

ان العالم ليرتجف بين يدي حين احس بامتلاك مشاعر انثى حقيقية . اتدرين ؟ استطيع ان احب الف امراة في آن . لكن واحدة هي التي تشارك الجميع في قلبي . فريتي هي الانثى الوحيدة التي لم استطع ان امتلكها حتى اليوم . انها تملكني . وانت .. منتصف هذا العالم الذي يذكرني بالقهر الدائم ذي المخالب الاخطبوطية الشرهة . وحين وقعت كنت واحدا من الطيور المهاجرة التي ما ان تستقر على غصن شجرة حتى تطير الى اخرى . من عالم مبهور ، الى آخر مشرق ، الى ثالث حزين . لكنني حططت هذه المرة على الغصن واستللت مقصا من تحت ابطي . وعملت بالاجنحة نتفا وقصا . ومن ثم غمست كل جناح في قدر من الزيت المغلي . خرجت النيران من اعماقي وطافت على الحدقتين . وتفصد العرق من كل اجزاء هذا الجسد . وانقض السم صاعق مباغت كالمسعور على احشائي . ومع ذلك لم تنزف عيناي دمعة، ولم يطلق فمي آهة . كنت اطبق جفني على صورة وجهك وانت تهتفين: « لا عليك ايها الفلسطيني ، ان الارض كلها ملكك ما دمت تجد من يحبك فيها » .

لقد اصبحت هذه المدينة التي تغوص في رحم التاريخ دون ان ينقطع حبلها السري ، اصبحت ملكا لي ، منذ ان تفتح لي قلبك كالنرجسة . وفاح في الاجواء عبير القداح ، في ظهيرة شباط النهاز . احببت ان الثم الثرى البعيد عن ثراي الذي به احلم ، لا من اجل شيء ، الا من اجل عينيك . فيهما قرات اسفار فقراء الارض ، ورايت زنزانات القهر الابدية ، واشراقة الشمس الدموية ، واطلالة القمر التشريني الذي ابتلعه الحوت . رايت سفائن الغيوم المحملة بالرعود وبالمطر . فيهما قرات عن طفل تلفح ببطانية عسكرية ، وكان البرد ياكل من اطرافه ويتغلغل ليستقر في قلبه . وشاهدت صورته صبيا يغوص حتى الركبتين في قلب مياه خلفتها الامطار الصحراوية في لجة الليل ، وبين يديه كيس قديم ، يحاول اغتراف الملح . تتحرق اصابعه .. فهي المجرحة المتشققة من اثر البرد القديم . لكنه لم يصر عينيه ، ولم يصرف على اسنانه حنقا . كان يتامل المشرق ، فتقع نظراتهعلىنخلة متوحدة ، تنفرج اصابع سعفها عن شمس كبيرة .. كبيرة ، خشي ان تبتلعه في جوفها ، لولا اطلالة وجه محبب لديه يقول : « لا تخف الشمس يا خلدون ، انها صديقتنا » .

استدراك آخر من الحركة الرابعة

(.. وعلم محررنا الخاص ان النار قد اتت على جميع لوحات المغدور الا واحدة ، اسماها الفنان « وطني » ، ويجد القارىء صورة اللوحة في مكان آخر من هذا العدد . (راجع ص ٦) .)

الحركة الثانية

من رسالة ابتهال اليه :

« .. وحين رايتك ، بقامتك الفارعة ، وهزال جسمك الذي ارعبني ، حسبت ان اسى العالم كله ، ويأس المنتحرين ، قد تركزا خلف نظارتيك العميقتين . راح الهاجس كالشعاع ينفذ من خلال عينيك الى شراييني ، فقلبي . وحين تحدثت ، شفشق في قلبي الندم لانني، للمرة الاولى ، اسات فهم انسان ، وفشلت في تفسيره . اليوم جاءني عادل البغدادي . ما ان دخل حتى بادرني :

ـ هل سمعت عن خلدون ؟

فقلت ، وخفقان قلبي يكاد يفصح عن كل شيء :

ـ اجل ، سمعت .

ـ كيف هو ؟

ـ يعيش كما لم يشته في يوم .

وكور نفسه فوق الاريكة مثل قط هارب من جحيم المطر والمطاردة:

ـ لقد قرات انه يزمع ان يطوف بمعرضه الجديد في بعض البلدان العربية والاوربية .

واورق في قلبي غصن ندي :

ـ احقا ما تقول ؟

ثم لمتك في قراراتي . لماذا لم تخبرني في رسالتك ؟ غير انني عضضت على شفتي السفلى حتى ادميتها . « وماذا لو انه يريد ان يفاجئني ؟ »

قال عادل وهو يغوص في مقعده وفي عيني :

ـ انه يتطور بصورة سريعة جدا .. جدا .

ـ كيف ؟

ـ ابتهال ، هل بدانا لعبة الاستغماية .؟

وفهمت ما يرمي اليه ، فقلت :

ـ ماذا تقصد ؟

وغمز بعينه دون ان يلتقط بالعين الاخرى ردة فعلي :

ـ انت ادرى مني واعلم . قولي الحقيقة . لماذا اخفيت عنا العلاقة التي نشأت بينكما ؟

ولست ادري لماذا لم اغضب منه ؟ لماذا لم اقل له ان هـذا لا يعنيك .؟ لم يخالجني شعور العذراء التي يضبطها شقيقها وحبيبها في ظل شجرة هرمة وحيدة في اطراف المدينة المهجورة . وانطلقت :

ـ انني احبه . هل في ذلك ما يعيب ؟

ـ انه طائر مثل النورس ، او السنونو ، او حتى غير ذلـك .. انه ابن بطوطة ، وسيموت مسافرا في الدنيا الموحشة هذه . وخيل اليّ انني وحيدة في الغرفة ، وان اشراقة مجهولة المصدر تبرق امـام عيني ، ثم تندس في صدري خلل النافذة العريضة التي تكشف لـي سماء بغداد المتسعة مثل فرحك الطفولي . واحسست بدفء ينشر ظلاله حولي ، ويغمرني كاحتضانتك المتوهجة . لقد افتقدت الدفء هذا الف عـام .

ـ على كل حال ، فكلنا مسافرون في هذا العالم .

ونذكرنك ، في مكانه الذي يجلسه الان ، تقول بعد ان نفثت مـن لفافتك الدخان :

ـ الحياة قطار يسير ، نحو هدف ، او لا ، لست ادري . المهم انني اريد آخر محطاته .

لم اجبك آنئذ ... وكنت اردد في اعماقي :

ـ كم احب رفقتك ايها المسافر !

استدراك آخر من الحركة الرابعة :

(لست املك الجسد القوي الذي يستطيع احتمال المغامـــرة والقتال . املك جسدا هزيلا ينتصر عليه حتى الزكام . وقالت له : قوتك الهائلة في انانيتك . وضحك بصفاء مثل حمامة غسلها المطر : وعين الحب عن كل عيب كليلة . احتضنته فاحسست به يذوب بين ذراعيها : لا يا حبيبي ، ثق انك قوي ، ومخيف ايضا . وفرد لها ذراعه في حركة استعراضية وهتف : هل ازرع فيك بذرة خوف ان كشفت لك عـن عضلي المزعوم ؟ ـ يا حبي الخالد الذي لا املك حياله الا الفرح والرعب. اكشف لي عن لب رأسك . ومد يده الى راسه . امسك بشعره ثم رفع راسه اليها : خذي . كل الواني مزيج من هذا ، وهذا . وكانت يده الاخرى تطبق على حزمة ليل من شعرها الطويل) .

الحركة الثالثة

كانت عارية كما نزلت آن ولادتها . مغمضة العينين ـ كانتـــا مصورتين على رعب تفضحه الصرخة المكتومة المتحجرة امام فمها المفتح بحركة متشنجة . مسمار السيد المصلوب دق في اربع زوايا . اليـد اليمنى ، اليد اليسرى ، القدم اليمنى ، والقدم اليسرى . حـــول الرقبة طوق من الفولاذ ، سمر من جانبيه بحيث يمنع اية حركة للاعلى او للاسفل . باعد شيء ما بين فخذيها . وانكشف للاعين صلبها . ومن زوايا المكان الواسع الضيق تطل افواه ، وخناجر . الدم المسفوح لطخ الفخذين . النهدان نافران كذراعين لمرعوب يستغيث . والحلمتان تنزفان الدم . وكانت جميلة . شهية ، كمائدة السيد المصلوب ، واكثر. وكتب تحتها . (وطني) .

ـ هل تستطيع التحديق في هذه اللوحة ؟

وقذف صاحبه بعينيه بعيدا عنها :

ـ اشعر بالعار ، وبالقرف .

قال الاول :

ـ اشعر انني دققت احد تلك المسامير .

وكانت ابتهال تقف منذهلة في زاوية قريبة . نظرت اليه . كـان يشرح لجمع من زوار المعرض معنى لوحة اخرى . واحس بامتعـــاض مؤقت لان احدا لم يسأله عن لوحة (وطني) . وشاهدت ابتهال الناس تهرب ما ان تقع نظراتها على (وطني) .

الحركـة الرابعـة

ـ هل هي معنا الان ؟

ووجـم :

ـ طبعا . انا صادق في حبك ، لكنها تملكني هي الاخرى . تملكني كما لم يملك شيء في الوجود .

ـ احس بالغيرة منها .

ـ وانا احس انها في آخر محطة .

تناولت يده ولثمتها :

ـ خذني معك .

ـ انت معي دائما ، منذ عثرت عليك ، وعثرت عليّ . اخال انك كنت معي مذ ولادتي . لذلك كنت دائم الرحيل والسفر .

وبسمت فحلق في السماء طائر برق :

ـ اذن انا في قلبك مثلها .

وضحك من اعماقه وقال :

ـ هل تحسبون قلبي فندقا كبيرا ؟

وقرصتـــه :

ـ ايها الخبيث !

وضربت رأسها بجمعها وهي تصرخ :

ـ لقد سافر دون ان يصحبني معه . لقد سافر وحيدا .

ولم يعرف عادل البغدادي ماذا يصنع . هو الاخر احس انه فقد شيئا يحبه . وكانت المرارة تنعقد في حلقه وتتضخم كالسرطان :

ـ لا ، ابتهال ، ارجوك . ستقتلين نفسك .

ـ يا نفسي الشقية من بعده . الا تدرك انه كان مقطوعا من شجرة؟ لقد اصبحت انا الان مقطوعة من شجرة الدنيا الوحيدة . اي شقـــاء سوف اعيشه بعد اليوم ؟ لقد كنت انانيا يا خلدون . لم ذهبت وحدك؟ هل وصلت آخر محطة ! هل كانت تنتظرك هناك .؟ كيف تصلها وحيـدا كما كنت في حياتك قبل ان تلقاني ؟

وجرح الدمع الجفون الملتهبة . وكان الفؤاد عصفورا في مهـب عاصفة ثلجية طاغية . الشهقات لا تنقطع . واليدان متشنجتان . الاصابع متباعدة والعروق نافرة زرقاء مثل سماء حبلى بالليل . كانت حيرة عادل اكبر من ان تسمح له بالحركة . ووجد نفسه فجاة ينهمر بالبكاء كالمطر . مثل هر مفجوع تكور فوق الاريكة واخذ جسده هو الاخر يهتز بتواصل. وكانت شهب من نار تصلي عينيه وقلبه . ونهضت ابتهال . وباصابعها المتشنجة ازاحت الشعر المنهدل عن جبينها . كانت ثمـة ترنيمة حزن قاتل تتموج في اعماقها .

ان جروح جسدي تنفغر الان تطلب مثل افواه اطفال جياع لثمـة من شفتيك . الرعاف الابدى المتعملق في احشائي يصرخ طالبا رفقـة سفر ابدية معك . وخرجت الكلمات من فمها المكلوم :

ـ لننهض الان يا عادل . لنطلب على الاقل الجثة .

وكان نوحه الصامت يثقل رجليه :

ـ لا اقدر ان اقف .

وجففت ابتهال دمعها . وفتحت عينيها ثم فركتهما . وعادها هدوء غريب . اصوات متداخلة تأتيها من عالم مجهول . تقدمت من الطاولة وجلست . اخذت القلم وراحت تكتب :

خلـدون :

كم كنت انانيا برحيلك المفاجيء . لا . اعض على شفتي من الندم. لقد امتدت قوة اليك ، تناولتك من القطار وهو بعيد عن المحطة التي تريد ، قذفك في الهواء . سقطت في خواء ابدي . ها انذا وحيدة مثل لوحتك التي لم تستطع نيران العالم ان تحرقها . ساطوف بها كل العالم لاقرأ في الاعين مشاعر الذل والعار .

ثم قذفت بالقلم بعيدا واخذت تقول : اكشف لي عن لب رأسك لادرك السر .. اكشف لي عـن قلبك المطعـون .

الكويـت